التجربة الصوفية في شعر الأمير عبد القادر
الرائية أنموذجا

د. عبد الرزاق بن السبع

جامعة الحاج لخضر

باتنة

ملخص:

يتناول هذا المقال تجربة الأمير عبد القادر الصوفية من خلال رائيته الشهيرة ذلك أن أغلب الباحثين في هذا المجال يصنفون الأمير في خانة الشعراء المتصوفة التقليديين اللذين لم يمارسوا التصوف،وإنما سار مقلدا نهج سابقيه. وعليه تحاول هذه الدراسة إماطة اللثام عن حقيقة هذه التجربة الروحية في حياته وكيف عاشها قولا و فعلا مع رصد لأهم المحطات و الأسباب التي كان لها أثر في سلوك الأمير نهج التصوف السني الصحيح.

RESUME

Le sujet traite les apparences d'expérience du soffia chez l'émir abdelkader à travers sa fameuse el-raia ou la majorité des chercheures le considèrent comme l'un des poètes traditionnels dont ils n'ont pas pratique la vraie expérience tant qu'ils sont suivi la démarche ancienne ,et dans ce cas la cette étude essaie rendre la vérité plus claire sur la soffia chez l'émir et comment ce poète l'a reecu vraiment et l'pratique avec l'eclairesissement des grands points dont ils ont une grande importance sur le comportement de ce poète

يعتبر الأمير التصوف ((جهاد النفس في سبيل الله ، أي لأجل معرفة الله و إدخال النفس تحت الأوامر الإلهية ، و الاطمئنان و الإذعان لأحكام الربوبية لا شيء آخر من غير سبيل الله))(1). للوصول إلى غاية سامية و هدف جليل باعتبار ((أن الصوفية هم سادات طوائف المسلمين))(2).

فمفهوم التصوف عند عبد القادر إذن ((هو جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة و العبادة الخالصة لله و الحضور الدائم له))(3).

وما دمنا نتحدث عن الأمير وعلاقته بالتصوف ، فإن المقام يفرض علينا أن نعود قليلا للوراء لنكشف الأسباب و الدوافع التي حملت الأمير عبد القادر على سلوك هذا الطريق الصعب الجليل في محاولة لاستعراضها ، ذلك أن التصوف قد ارتبط بحياة الأمير ارتباطا شديدا حتى يخال المرء وهو يتصفح حياته أنه خلق ليكون صوفياً، وما الإمارة و السلطان إلا محطات عابرة في حياته .

فالأمير تشرب الدين من صباه ، حيث نشأ في أسرة محافظة شديدة التدين يشهد لأفرادها بالتقوى و الصلاح و العلم و الزهد ، فأبوه كان (مرابطا) وشيخ الطريقة القادرية في الجزائر ، و الذي سعى جهده في تنشئة ابنه نشأة دينية علمية صوفية ، وتأهيله تأهيلا دينيا ليستخلفه في منصبه ، بل إن هم عبد القادر الأكبر في شبابه هو أن يصبح (مرابطا) مثل والده (4)، ولم يخطر بباله قط أنه سيتحمل ثقل أمانة الإمارة و قيادة الشعب ، فالظروف و الأحداث هما اللتان أجبرتاه على ذلك ((وإن دوره الحقيقي لم يكن إقامة دولة ، بل العبادة و التجرد والبعد عن هذا العالم)) (5).

و لنستمع إليه وهو يقرر هذه الحقيقة الثابتة لأحد الأساقفة الفرنسيين بقوله : ((لعلك قد اكتشفت من خلال حديثنا انى لم أولد لأكون محاربا و لو يوما واحدا ، ومع ذلك فقد حملت السلاح طيلة حياتي ، ما أكثر غموض مغيبات القدر، ولم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدا عن الدور الذي حدده لي ميلادي وترتيبي وميولي))(6).

إضافة إلى هذا فقد لعبت الأحداث دورا رئيسا في توجه الأمير هذه الوجهة الصوفية فغني عن البيان أن المرحلة الأولى من حياة عبد القادر و نقصد بها مرحلة الإمارة والجهاد التي امتدت من 1246 – 1264هـ/1830-1848م قد شغلته عن هذا السبيل و انحصرت اهتماماته في الأمور السياسية و العسكرية حاملا أعباء أمة و قائدا لكفاح شعب،على أن ذلك لم يستمر طويلا مع عبد القادر فبانتهاء هذه المرحلة بدأت مرحلة جديدة هي مرحلة التصوف و العبادة و التجرد من متاع الدنيا الفانية(1) فكان أسره (بامبواز Aumboise) من أهم المحطات التاريخية في تصوفه، فحين ضاقت عليه الأرجاء وتبدل حاله ،كان عزاؤه الوحيد في سجنه أو خلوته إن صح لنا التعبير–

هو الدعاء المتواصل و الصبر الجميل ،ولنستمع إلى عبد القادر و هو يصور لنا حاله ، و يصف لنا نفسيته التعيسة يقول : ((دخلت مرة خلوة ، فعندما دخلتها انكسرت نفسي و ضاقت عليا الأرجاء ، و فقدت قلبي، و إذا المعرفة نكرة ، و الأنس وحشة، و المطايبة مشاغبة ، و المسامرة مناكرة ، فكان نهاري ليلي ، وليلي ويحا وويلا ، وأي قربة أردتها ابتعدت بها، فلم يبق مني من أنواع الصلوات إلى الصلاة فكان هذا ابتلاء))(8).

وهكذا أتيح للأمير في هذه الخلوة التأمل و التفكير الروحاني الهادئ العميق فكانت ساعات يومه و ليله عبادة وذكر و تبتل و ابتهال للمولى سبحانه و تعالى أن يفرج كربه ويحل أزمته، فكانت رحمة ربه أن من عليه بفضل عظيم حيث ((كانت ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة و آمرة بالصبر))(9) ولذلك اعتبرت هذه المرحلة بمثابة حلقة الوصل بين مراحل التصوف عنده.

ومما زاد في أهميتها هو ذلك اللقاء بين الأمير و بين الصوفي الكبير الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني ، الذي يبدو أن عبد القادر تتلمذ عليه ((وتلقى عليه مبادئ الطريقة الشاذلية و أصولها و ناقشه في الموضوعات الصوفية))(10).

على أن أهم مرحلة من مراحل التصوف عنده هي تلك التي تلت إطلاق سراحه و فك أسره ،ففيها ((تغلغل الأمير في علوم القوم و أظهر من دقائق الحقائق و عوارف المعارف ما يؤذن بسمو مقامه وعلو قدره))(11) ولذلك يرجح ((أن يكون أديبا أول اتجاهات الأمير،أما التصوف نفسه فآخر ما اتجه إليه . . . فالتصوف أساس تراثه الموروث و الأدب و العلم ، كلاهما يرتبط ارتباطا عضويا بعلم التصوف و موضوعاته و وسائله و أهدافه و مؤلفاته لا سيما التي اختارها الأمير))(12).

وكانت هذه الفترة الأخيرة أطول مراحل التصوف عند الأمير من الناحية الزمنية،إذ تمتد ما يقرب الثلاثين سنة قضاها الأمير عبادة و ذكرا، وقد ذكر جواد المرابط أن الأمير ((كان يدخل الخلوة أربعين يوما في أشرفية (صحنايا)على قطرت الماء و على لوزة وتمرة كل يوم ، و أحيانا يكون قوته في خلوته كسرة خبز صغيرة مع قليل من زيت و تمرة كل يوم))(13)، كان عبد القادر يفعل هذا في حين يأكل عشرات الضيوف و عشرات الخدم من مطبخه و على مائدته.

وفي هذه المرحلة تم له الفتح العظيم إبان خلوته الصوفية الشهيرة حيث مكث في البقاع المقدسة مجاورا الحبيب المصطفى لسنة ونصف السنة 1289-1280هـ/ 186-1864 م،حاجا و مقبلا فيها على العبادة و جهاد النفس و الخلوة ، حيث التقى فيها بالشيخ العارف بالله محمد

الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية و تتلمذ عليه،وشرب عنه الطريقة ، إلى أن ارتقى في معارج الأسرار الإلهية((وتم له الارتقاء في غار حراء لأنه انقطع فيه أياما عديدة إلى أن جاءته البشرى و وقع له الفتح النوراني،و أنفتح له باب الواردات و استظهر من القرآن الكريم آيات،و من الحديث النبوي أحاديث صحيحة(14)و قد أشار الأمير إلى هذا في رائيته الشهيرة التي يمدح فيها شيخه الفاسي و مطلعها(15):

أمسعود جاء السعد و الخير و اليسر وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

بعد هذه اللمحة المبسطة عن تجربة التصوف عند عبد القادر و الأسباب و الدوافع التي ساهمت في سلوكه هذا السبيل،ننتقل بعدها لنعيش مع شعره الصوفي ، و قبل أن نعرض لتحليل قصيدته الرائية و دراستها لابد أن نسجل أن للأمير قصائد كثيرة في التصوف على حد قول محقق الديوان ((وإني لأعرف له كثيرا من هذا النوع يتناشده رجال الطرق في أذكارهم ،على أني و إن كنت قليل الشك في نسبته إليه فلا ريب عندي في أنه أصبح خليطا من قوله و قول سواه من الدخلاء على هذا الفن و مزيجا غريبا من أقوال متفاوتة الدرجات ، و أكثره محطم الوزن مضطرب المعنى ، يشق تخليص بعضه من بعض، وليس من وراء ذلك جدوى فنية ذات قيمة ، والذي بين أيدينا فيه الكفاية ليدل على مستواه في الشعر ، وعلى الفنون التي تعاطاها ، و منزلته بين شعراء عصره و أسلوبه وقدرته))(16).

و للأمانة العلمية نسجل ملاحظة عبد الله الركيبي وهو يتحدث عن شعر التصوف عند عبد القادر حيث ذكر((أن هنالك من القصائد و خاصة التي قالها الأمير في التصوف تختلف في شكلها و ألفاظها أو عباراتها من مصدر إلى آخر فهي في ديوانه تختلف عنها في كتابه المواقف،و من هنا فإنها في الديوان تبدو سليمة إلى حد ما في أوزانها وتفعيلاتها،بينما تبدو في المواقف مكسورة نظرا للتقديم و التأخير في عبارتها مما يدعو إلى التساؤل، هل أن القصائد التي في المواقف هي الأصل ثم نشرت في الديوان بترتيب وصياغة جديدة؟ومن قام بهذا العمل؟(17).

ومهما قيل عن شعر التصوف عند الأمير فإنه لا يحط من قيمته و جهده في هذا المضمار، و يكفيه فخرا أنه ((أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثرا ، وشعرا وترك تراثا ضخما بالقياس إلى غيره من العلماء و الشعراء في عصره ، وربما إلى من جاء من بعده على تفاوت بينهم قلة و كثرة))(18) وإذا عد الأمير في بداية حياته شاعر العروبة والإسلام ((فإنه في آخرها يمكن اعتباره شاعر التصوف بلاغ منازع))(19).

و القصائد التي بين ايدينا تحول كلها في دائرة شعراء التصوف الأقدمين مثل الحديث عن المتصوفة ووصف حالاتهم و انجذابهم أو مشاهدتهم و نشوتهم في حالة السكر والصحو،أو حالة الشك التي تعتري المتصوف و هو يلتمس طريقة إلى حب الله،كما نجد التقليد واضحا في الموضوعات و الأفكار،بل إن الأمير يبدو في شعره الصوفي متأثرا إلى أبعد حدود التأثر ((بآراء محي الدين بن عربي في فتوحاته المكية و مقلدا لابن الفارض في كثير من صيغه وتعابيره))(20).

ففي قصيدته الرائية (أستاذي الصوفي)(21)التي أنشدها الشاعر في مدح شيخه الناسك الصوفي محمد الفاسي و التي ((تعتبر من عيون قصائده الموثقة رواية و نسبة))(22) حتى أن محمد السيد الوزير يراها((أجمل و أطول مدائحه و ربما قصائده كلها))(23).

فبعد مقدمة القصيدة التي صور فيها حالته البائسة الكنودة ،بلياليه الطوال، وأيامه الداجنة الحبلى بالهجران و الفراق و العذاب ،لحرمانه من رؤية هذا الشيخ المبارك ، لا يلبث أن يقدم الحل فتنفرج أزمته التي خال أن حلقاتها قد استحكمت فيأتيه الفرج من حيث لا يحتسب ، فما هي إلا أياما معدودات حتى أتاه البشير يحمل إليه الخبر السعيد، متمثلا في دعوة شيخه له بالحضور إلى مكة المكرمة، فأية بشرى هذه و أية فرحة تملكت الأمير وهو يتلقى هذا النبأ السعيد ، فحالما وصلته، طار به جناح الشوق –الذي لم يخش له كسر– يقطع الفيافي و البراري و السهول فكل شيء يهون ولابد أن تتم الرحلة مهما اشتدت الصعاب و تراكمت العقبات ، إنه الأمل الذي عاش الأمير يعد له الأيام و الليالي فليحققه و ليكن ما يكن .صحيح إن الدرب شاق و السفر طويل و مضني، لكن الغاية و الهدف أسمى و أجل أن تقف أمامها النوائب والمعوقات، فكل شيء يرخص في سبيل اللقاء و الوصال، إلى أن وصل الشاعر إلى بطاح مكة التي شرفها المولى و أعزها و رفع مقامها و قدرها ببينه العتيق،و كعبتها المشرفة،فتسامت بذلك مجدا و علوا فلا يدانيها فخر ولا مجد،و أمام هذا المشهد الرهيب المهيب يقف عبد القادر متدبرا في آيات الله و حكمته،في أنه جعل بينه المعظم حرما آمنا يحرم فيه الصيد مع أنه مباح و مشروع في بقية أنحاء البسيطة ، مستشعرا عظمة المولى تبارك و تعالى مبديا فرحه و حبوره،وهو يكرر لفظ(بطاح)و كأننا به يريد أن يصور أو ينقل لنا ذلك الجو الروحي الذي يمتلك النفس و هي تؤم هذه البقاع المشرفة فتزهد في حطام الدنيا و زخرفها لتلج بالروح والجسد في هذا العالم الروحاني المتشبع بالنفحات الإلهية،فلا قلق ولا خوف ولا اضطراب رحمة من رب الأنام((ولما لا والإنسان حين يؤم هذه البقاع المشرفة تنحسر ما بينه وبين خالقه الحجب فيغفر له

ذنوبه،مصداقا لقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم(من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)،وهذا ما عبر الشاعر عنه بقوله:من حلها حاشا أن يبقى له وزر(24):

إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى بعيدا ألا فادن فعندي لك الذخر
فشمرت عن ذيلي الإطار وطار بي جناح اشتياق ليس يخشى له كسر وما
بعدت عن ذا المحب تهامة ولم يثنه سهل هناك ولا وعر إلى أن
أنخنا بالبطاح ركابنا وحطت بها رحلي وتم لها البشر بطاح بها
البيت المعظم قبلة فلا فخر إلا فوقه ذلك الفخر بطاح بها
الصيد الحلال محرم ومن حلها حاشاه يبقى له وزر

ومن عادة الصوفي أن يذيب شخصيته في المرشد حتى أنه ليؤثر عن ذي النون المصري أنه قال: ((طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه))(25) إلا أن اعتزاز الأمير واعتداده بنفسه دفعاه إلى أن يساوي نفسه بنفس شيخه ولما لا؟أليس الأمير سليل الشرف النبوي والعالم المجاهد التقى الورع فحق له أن يفخر بذلك فهو لم ينس فروسيته ونسبه وخلاله الحميدة. وقد ورد أن المريد الذي لم يجد الشيخ الذي يتأدب به، ويأخذ عنه الطريقة عليه أن يهاجر إليه ويقيم عنده ولا يبرحه حتى يؤذن له.ولكن الأمر هنا اختلف تماما لدى شاعرنا،فالشيخ هو الذي قدم لزيارة عبد القادر بنفسه،و اعتبر ذلك شرفا له،كما عد الأمير ابنا له بالتبني الصوفي-إن جاز لنا التعبير بذلك- منذ أن خلق الله هذا الكون، فما السر يا ترى وراء هذا؟يجيبنا الأمير سريعا بأن هذه المنزلة وهذا الاحترام مرده إلى نسبه الكريم الطاهر الذي من به الله عليه فنعم النسب ويا حبذا الذخر(26):

أتاني مربي العارفين بنفسه ولا عجب فالشأن أضحى له أمر
وقال فإني منذ أعداد حجة لمنتظر لقياك يا أيها البدر
فأنت بني مذ " ألست بربكم " وذا الوقت حقا ضمه اللوح والسطر
وجدك قد أعطاك من قدم لنا ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر

على أن عبد القادر سرعان ما يتدارك الأمر و يعود ذلك المريد الذليل التابع لشيخه يطيعه الطاعة العمياء ، فالأمير ليس مبالغا إن صرح انه قبل إقدام بساط هذا العارف بالله عند مثوله بين

يديه بعد طول انتظار له من شيخه، على أن هذا الخضوع و الانحناء والتذلل قد أتى أكله ، فها هو شيخه يرمي له بالبشارة فأفضى إليه بالسر وبذلك قضى أمرا كان مقدرا للأمير ، فنال به البركة و أصبح أهلا لأن يعود من المتصوفة ، كان حاله كنحاس لا قيمة له ، ثم جاء هذا الشيخ فحوله إلى ذهب خالص يتهافت الناس لامتلاكه (27):

فقبلت من أقدامه وبساطه وقال لك البشرى بذا قضى الأمر

و ألقى على صفري بإكسير سره فقيل له : هذا هو الذهب التبر

وما هذا التقدير و الإجلال لهذا الشيخ إلا لكونه ذا شمائل وأخلاق سامية فهو حريص على هدي الخلائق رحيم بهم بر عطوف، لأنه خبير بأحوالهم و معاناتهم فقد أعطى مطلق الحرية في الحكم و التصريف اعتقادا من الأمير بأن هذه القوى الهائلة التي منحت لشيخه مستمدة من الرسول صلى الله عليه و سلم الذي وصفه رب العزة بقوله: [لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم] (28)

يقول : (29)

محمد الفاسي له من محمد صفي الإله الحال و الشيم الغرر

حريص على هدي الخلائق جاهد رحيم بهم بر خبير له القدر

كساه رسول الله ثوب خلافة له الحكم و التصريف و النهي و الأمر

وينتهي شريط العذاب و القلق حين يطأ الأمير ربوع الحجاز، فتكتحل مقلتاه بمرأى قداستها و طهارتها ، إنها البلد التي نشأ بها شيخه ، وترعرع بين حنباتها، يحن إليها الناس و تهفو لها أرواح الصوفية العشاق لأنها ((رمز للحبيب الأول و الأخير وهو الله))(30)فهذه مكة أشرف و أقدس الحواضر لا يطاولها في مجدها لا شمس ولا قمر ، ولا يبلغ ذروة جلالها طير ولا نسر ، فيها البيت العتيق مهبط الوحي الأول ، فعلى أديمها نشأ الحبيب المصطفى وبين وديانها وشعابها ،انتشرت دعوة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"،ولذلك فلا عجب أن تهوى إليه أفئدة المؤمنين ليشهدوا منافع لهم و يذكروا الله في أيام معلومات ،يطوفون حول البيت العتيق ،وذلك لعمري منتهى الأمل عند كل مسلم . على أن للأمير والقوم كعبة أخرى لا إفاضة لها و لا قدوم ،ولا ركن فيها ولا حجر تهوى لها قلوب الصوفية ،ينهلون من ينابيع الحب الإلهي و العشق الرباني، فشتان إذن مابين الحجيجين ،فالأول قد أدى مناسك ربه،فله أجر ما أحرم و طاف وسعى ووقف ، أما الثاني فقد نال الملك والسلطان و العز في رحاب القدس الأعلى و النور الأسنى:

فمكة ذي خير البلاد فديتها فما طاولتها الشمس يوما ولا النسر

بها كعبتان : كعبة طاف حولها حجيج الملا .بل ذاك عندهم الظفر

وكعبة حجاج الجناب الذي سما وجل فلا ركن لديه ولا حجر

وشتان ما بين الحجيجين عندنا فهذا له ملك وهذا له أجر

ويتعجب عبد القادر أشد العجب من أولئك الذين كان مقصدهم البيت و مبتغاهم الكعبة، ويميلون عن الجانب الأساسي و الحقيقي،وهو الذات العلية للمولى تبارك وتعالى الذي تجب إليه الزيارة وتشد إليه الرحال من كل فج عميق،فيلقى المرء نفسه في هذه الحضرة الإلهية الجليلة بصدق وإخلاص،لأن مضيفه يعلم السر وما تخفي الصدور،وفي هذه الحضرة المباركة تنبع وتشع أسمى الخلال والفضائل الربانية،ففيها تلقى الجود والكرم والخير العميم بدون حساب،ولا تسل عم أعد فيها من رياض زاهرات بمعارف وعلوم ربانية،لمن كان له الحظ في الإرتشاف من ينابيعها والتزود منها،فيا حبذا الفضل،فطوبى لمن كان من نصيبه

هذا الخير الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت به ولا خطر على بال بشر(31):

عجبت لباغي السير للجانب الذي نقدس مما لا يجد له السير

ويلقى إليه نفسه بفنائه بصدق تساوى عنده السر والجهر

فيلقى مناخ الجود والفضل واسعا ويلقى فراتا طاب نهلا فما القطر

ويلقى رياضا أزهرت بمعارف فيا حبذا المرأى ويا حبذا الزهر

ثم يعرض الأمير بعد وصفه لهذا الجو الروحاني للحديث عن الخمرة، التي كثيرا ما تغنى بها الصوفيون وسكروا بها،فهي ليست خمرة دنيا وما فيها من إثم وفواحش كما وصفها رب العزة،بل إن المقصودة هنا هي "الخمر الإلهي الذي لم تعتصره يد البشر وليس بسكر الحقيقة،لا يقصدون الخمر الذي يذهب العقل ويطير الفؤاد ويذهل الإنسان،إنما سكر هؤلاء العشاق من وقدة الحب،وحرقة الجو،ولذة الوصال والقرب من الله العلي القهار"(32) ولذلك نرى شاعرنا الصوفي يفيض في وصف أثرها الحسي والروحي، يعبها المتصوف من كأس صرفة لا غول فيها،ليس لها برد ولا حر، لم يتغير لونها ولا طعمها،فهي ((معتقة من قبل كسرى لم يضمها دن ولم تمسسها يد معتصرة،ولا عابها زق،ولم

تحمل على الإبل عرضة للتجارة،فهي كخمرة الجنة التي نفى عنها القرآن السكر فصاحبها واع على الدوام لا يقربها حمق ولا جهل ولا عربدة)):(33)

ويشرب كأسا صرفة من مدامة فيا حبذا الكأس ويا حبذا خمر
فلا غول فيهالا،ولا عنها نزفة وليس لها برد و ليس لها حر
ولا هو بعد المزج أصفر فاقع ولا هو قبل المزج قان و محمر
معتقة من قبل كسرى مصونة وما ضمها دن ولا نالها عصر
ولا شانها زق ولا سار سائر بأجمالها كلا ولا نالها تجر

ويشفق الأمير تارة ويتحسر أخرى على أولئك الذين حرموا من شربها فذلك هو الخسران المبين،فلو أن الملوك والسلاطين أنفسهم رأوا ختم إنائها لتخلوا طوعا عما يملكون من مال وجاه وسلطان بأنفس راضية، فهم يتنازلون عن كل هذا مقابل رشفة من هذه الخمر،حتى ان
العلماء لوهبت عليهم ريحها وهم في حلقات العلم لما زلوا ولا أخطأوا،لأنها عين الصواب والحق،فهي العلم كل العلم(34)

فلو نظر الأملاك ختم إنائها تخلو عن الأملاك طوعا ولا قهر
ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها لما طاش عن صوب الصواب لها فكر
فيا بعدهم عنها و يا بئس ما رضوا فقد صدهم قصد وسيرهم وزر

ويشرق في خاطر الأمير ذلك التوارث العرفاني دون انقطاع عن طلب العلم،فهذه الخمرة عنده هي العلم ومركزه،وكل ما حولها يدور في فلكها،ولذالك فلا يقربها إلا من خبرها وعرف قيمتها وهم-الصوفية-،أما غيرهم فلا يفقهون من أمرها شيئا،قد فاتهم الربح،و حقت عليهم الخسارة في الدنيا حين صرفوا عنها ولم يشربوها:(35)

هي العلم كل العلم و المركز الذي به كل علم كل حين له دور
فلا علم إلا خبير بشربها ولا جاهل إلا جهول بها غر
ولا غبن في الدنيا ولا من رزيئة سوى رجل عن نيلها حظه نزر
ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر سوى واله و الكف من كأسها صفر

ويبلغ الشاعر درجة كبيرة من التقليد حين يأتي بأبيات أبي نواس في وصفه للخمر العادية،ويضمنها قصيدته،على أن الأمير هنا يلح فيها على فكرة التصريح بالحب الإلهي،فالاختلاف بينهما هنا في التأويل فقط،وليس عبد القادر بمبتدع في هذا،فقد سبقه إلى ذلك كثير من الشعراء

المتصوفة((فالخمريات منبع فوار من منابع الأدب الصوفي،يكفي أن نورد لأمير الخمر أبي نواس قصيدة لا تختلف عن خمريات الصوفية المتأخرين إلا بالتأويل فقط،فقد سار شعراء الصوفية في الخمريات على آثاره وغرفوا من عبقريته وعبقرية أقرانه))(36)،يقول الأمير:(37)

إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها وصرح ما كنى و نادى نأى لصبر
اسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
وصرح بمن تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

ثم يخلص للحديث عن تأثير هذه الخمرة في شاربيها من المتصوفة فيصور لنا حالاتهم في لوحات معبرة،فقد هامت عقولهم، ودب في نفوسهم الانشراح و الانبساط فتراهم سكارى وما هم بسكارى بنشوتها لا يدرون بشيء مما يجري حولهم ،غمرتهم سعادة طاغية فأفقدتهم الإحساس بالواقع المادي، أعرضوا عن زينة الحياة الدنيا فتسامت أنفسهم وحلقت أرواحهم في الآفاق، يسبحون في ملكوت القدس الأعلى، هم ملوك الأرض و سادة الأنام، بهم الرجاء و عليهم الأمل، فقدوا الشعور بعالمهم الأرضي فهم حيارى لا يعرفون لهم سبيلا،

ليس لهم ذكر ولا فكر، فكل ما هناك أرواح شفافة هائمة في عالم غريب لا يدركه إلا من >عب واغترف من هذا النبع: (38)

ترى سائقيها كيف هامت عقولهم ونازلهم بسط و خامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر
وقالوا فمن يرجى من الكون غيرنا فنحن ملوك الأرض لا البيض والحمر
تميد بهم كأس بها قد تولهوا فليس لهم عرف وليس لهم نكر
حيارى فلا يدرون أين توجهوا فليس لعم ذكر وليس لهم فكر

ولهؤلاء الندمان السكارى موسيقاهم الخاصة فهم لا يطربون لغيرها يرون جمال اللحن و حلاوته في أصوات آيات الله في كونه، فيطربون اذا ومض البرق، و يرقصون إذا قصف الرعد، يهب عليهم طيب النسيم فيزيد في سكرهم و نشوتهم، حتى لكأنهم مسحورين وما بهم إلا سحر الطبيعة وجمالها،ولرهافة إحساسهم وشعورهم فهم يتأثرون لنشيج وحزن أضعف مخلوقات الله فيبكيهم هديل الحمام في الدجى، يسكبون دموع الرحمة و الخوف و الخشية،فيختلط هذا البكاء بذاك الطرب في النفس الصوفية فتذوب لها أكبادهم،وتقشعر منه جلودهم مهما بلغت من القوة ورباطة الجأش.

وعلى الرغم من قوة الصوفي وشدة احتماله،إلا أنه يضعف أمام ظباء وغزلان (رامة) حين تتبدى له بقاماتها الهيفاء،وعيونها الجميلة الأخاذة،فتسلب الأفئدة وتأسر الألباب،فلا ترى إلا عشاقا يهيمون حبا ويذبون شوقا للقاء: (39)

فيطربهم برق تألق بالحمى وبرقصهم رعد بسلع له أزر
وبسكرهم طيب النسيم إذا سرى تظن بهم سحرا وليس بهم سحر
وتبكيهم ورق الحمائم في الدجى إذا ما بكت من ليس يدري لها وكر
بحزن وتلحين تجاوبتا بما تذوب لها الأكباد و الجلمد الصخر
وتسبيهم غزلان رامة إن بدت وأحداقها بيض و قاماتها سمر

ويعرج بنا عبد القادر للحديث عن معاناته وما قاساه في سبيل الحصول على هذه الخمرة التي أطنب في وصفها وذكر محاسنها،فقد ضحى بكل غال و نفيس من أجل غايته، فهانت الدنيا في عينيه، هجر الأهل و الأحباب و الغيد الحسان، و صارع العوادي و العدى، فلم تثنه الطبيعة بجبالها و بحارها و صحارها عن مواصلة المشوار وبلوغ ما تاقت نفسه إليه، فلا أحد كائنا من كان ومهما بلغت محبته و درجته عند عبد القادر، بقادر أن يرده عن قصده، أليس هذا النوع من الحب و التضحية منتهى الفروسية الحقة: (40)

و في شمها حقا بذلنا نفوسنا فهان علينا كل شيء له قدر
وملنا عن الأوطان والأهل جملة ولا فلا قا صرات الطرف تثني ولا القصر
ولا عن أصيحاب الذوائب من غدت ملاعبهم مني الترائب و النحر
هجرنا لها الأحباب و الصحب كلهم فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر
ولا ردنا عنها العوادي و لا العدا ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر

وفي سبيل تحقيق غايته الأسمى،يستبدل الشاعر لباس العز و المجد بلباس الذل و الهوان عن طيب نفسه، بل إنه يحبذ هذا الأمر – على الرغم من مرارته – لأن المولى تفضل عليه بهذا فأكرمه ووفقه فحقق مبتغاه، فوجب الحمد والشكر لصاحبه: (41)

وفيها حلا لي الذل من بعد عزة فيا حبذا هذا و لو بدءه مر
وذلك من فضل الإله و منه علي فما للفضل عد ولا حصر
وقد أنعم الوهاب فضلا بشربها فلله حمد دائم و له الشكر

وما دام قد بلغ ما تاقت نفسه إليه، فهو بنعمة ربه يحدث، لأن ما وصل إليه وناله يعجز الغير عن معرفته و إدراك قيمته، حتى ولو كانوا ملوكا، فلا يسعون إليه و لا يبذلون الأنفس في سبيله، لأنهم انساقوا وراء شهواتهم،وزينت لهم الحياة الدنيا فباؤا بخسران مبين، فكل ما عندهم وما يملكون يتنازل عنه الصوفي مقابل رشفة من هذه الخمرة ، يذهب شاربها

بالفوز و الفلاح والخير،ويعود المحروم منها بالحسرة و الندم: (42)

فقل لملوك الأرض أنتم وشأنكم فقسمتكم ضيزى(43) وقسمتنا كثر

خذ الدنيا و الأخرى أباغيهما معا وهات لنا كأسا فهذا لنا وفر

ويهنئ الشاعر نفسه و الصوفية في ختام قصيدته بهذا الفوز العظيم و التجارة الرابحة ، فقد غنموا بعد فقر وأمنوا بعد خوف فهم لا يحزنون ،نورهم يسعى بين أيديهم ومن خلفهم،بلغوا أعلى الرتب فهم في هدي من ربهم،أما غيرهم فحدث عنهم ولا حرج، تراهم في ظلمات يعمهون ،صم بكم عمي لا يفقهون من أمر دنياهم إلا ما بدا منها،على أعينهم غشاوة،انساقوا وراء شهوات الحياة و بريقها المزيف ،فهم كالأنعام أو أضل سبيلا،انطبق عليه قول المولى تبارك و تعالى: ((ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون)) (44)

يقول: (45)

هنيئا لنا يا معشر الصحب أننا لنا حصن أمن ليس يطرقه ذعر

فنحن بضوء الشمس والغير في دجى و أعينهم عمي و آذانهم وقر

ولا غرو في هذا وقد قال ربنا تراهم عيون ينظرون ولا بصر

وخلاصة القول أن هذه القصيدة قد أبانت عن صدق تجربة الشاعر الصوفية فقد عاشها قولا وعملا من خلال سلوكه في حياته العامرة بجلائل الأعمال علما و درسا و جهادا و فروسية فكان حقه علينا أن ننصفه و ننزله المكانة التي هو أجدر بها.

الهوامش:

1- الأمير عبد القادر الجزائري كتاب المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد ، مراجعة و تصحيح لجنة من علماء دمشق، منشورات دار اليقظة العربية ط2 دمشق1969 م ج الموقف 71 ص141 2- نفسه م ج الموقف 209 ص428

3- فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 116
4 - شارل هنري تشرشر : حياة الأمير عبد القادر ت ر عبد القاسم سعد الله ش،و،ن،ت الجزائر 1986 ص40
5-نفسه ص 285
6-نفسه ص286

7-فؤاد صالح السيد المرجع السابق ص12
8-الأمير عبد القادر الجزائري المصدر السابق مج 1 ص471-473
9-نفسه مج ص 472
10-نفسه ص133
11-نفسه ص133
12-محمد السيد الوزير :الأمير عبد القادر ثقافته و أثرها في أدبه مكتبة الملك فيصل الإسلامية مصر 1966ص 142
13-جواد المرابط : التصوف و الأمير عبد القادر الحسني الجزائري منشورات دار اليقظة العربية دمشق 1966 ص 26
14-محمد ابن عبد القادر :تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر شرح و تعليق ممدوح حقي دار اليقظة العربية بيروت ط2 1964 ص 695
15-الأمير عبد القادر الجزائري الديوان شرح و تحقيق ممدوح حقي دار اليقظة العربية بيروت 1964 ص183
16-الديوان ص15
17-عبد الله الركيبي الشعر الديني الجزائري ش،و،ن،ت الجزائر ص200-253
18-نفسه ص241
19-نفسه ص242
20-محمد ناصر منتخبات من شعر الأمير عبد القادر المؤسسة الوطنية للكتاب 1981 ص16
21- الديوان ص183

22-زكرياء عبد الرحمان صيام: الصالة و التجديد في شعر الأمير عبد القادر،مجلة الثقافة عدد خاص بمناسبة ال\كرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر عدد 75 ماي-جوان 1983الجزائر ص291

23-محمد السيد الوزير لمرجع السابق ص185

24- نفسه ص295-296

25-محمد السيد الوزير : المرجع السابق ص127

26-الديوان ص185

27-الديوان ص186

28-التوبة/128

29-نفسه ص187-189

30-نفسه ص192-193

31-الديوان ص193

32-علي الحطيب:ا تجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن العربي ،دار المعارف،مصر ص 148

33-الديوان ص193-194

34-نفسه ص194-195

35-الديوان ص194-195

36-بكري شيخ أمين :مطالعات في الشعر المملوكي و العثماني منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط3 1980 ص257

37-الديوا ن ص195

38-الديوان ص195-196

39-نفسه ص196

40-الديوان ص 197

41-نفسه ص 197

42-الديوان ص198

43- إشارة إلى قوله تعالى: (تلك إ\ن قسمة ضيزى)النجم 1آية 22

44-الأعراف /189

45-الديوان ص19